

تفسير البحر المحيط

@ 407 @ إنا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال كما أمرتمونا وما أغنيتم عنا شيئاً ،
فلذلك جاء جوابهم : لو هدانا اﷻ لهديناكم ، أجاؤا بذلك على سبيل الاعتذار والخجل ورد
الهداية اﷻ تعالى ، وهو كلام حق في نفسه . وقال الزمخشري : من الأولى للتبيين ، والثانية
للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب اﷻ ؟ ويجوز أن يكونا
للتبعيض معاً بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شيء ، هو بعض عذاب اﷻ أي : بعض بعض عذاب
اﷻ انتهى . وهذان التوجيهان اللذان وجههما الزمخشري في من في المكانين يقتضي أولهما
التقديم في قوله : من شيء على قوله : من عذاب اﷻ ، لأنه جعل من شيء هو المبين بقوله :
من عذاب اﷻ . ومن التبيينية يتقدم عليها ما تبينه ، ولا يتأخروا لتوجيه لثاني ، وهو بعض
شيء ، هو بعض العذاب يقتضي أن يكون بدلاً ، فيكون بدل عام من خاص ، لأنّ من شيء أعم من
قوله : من عذاب اﷻ ، وإن عني بشيء شيئاً من العذاب فيؤول المعنى إلى ما قدر ، وهو بعض
بعض عذاب اﷻ . وهذا لا يقال ، لأنّ بعضية الشيء مطلقة ، فلا يكون لها بعض . ونص الحوفي ،
وأبو البقاء : على أنّ من في قوله : من شيء ، زائدة . قال الحوفي : من عذاب اﷻ متعلق
بمغنون ، ومن في من شيء لاستغراق الجنس ، زائدة للتوكيد . وقال أبو البقاء : ومن زائدة
أي : شيئاً كائناً من عذاب اﷻ ، ويكون محمولاً على المعنى تقديره : هل تمنعون عنا شيئاً
؟ ويجوز أن يكون شيء واقعاً موقع المصدر أي : غنى فيكون من عذاب اﷻ متعلقاً بمغنون
انتهى . ومسوغ الزيادة كون الخبر في سياق الاستفهام ، فكان الاستفهام دخل عليه وباشره ،
وصارت الزيادة هنا كالزيادة في تركيب : فهل تغنون . وقال الزمخشري : أجاؤهم معتردين
عما كان منهم إليهم بأنّ اﷻ لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ، ولم يضلّوهم إما مدركين الذنب
في ضلالهم ، وإضلالهم على اﷻ كما حكى اﷻ عنهم . وقالوا : لو شاء اﷻ ما أشركنا ولا آباؤنا
، ولو شاء اﷻ ما عبدنا من دونه من شيء ، يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في
الدنيا ، ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين : { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَتَكْفُرُ }
فَيَدْحَلِفُونَ لَهُ كَمَا يَدْحَلِفُونَ لَكُمْ وَيَدْحَسِبُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ }
انتهى . وحكى أبو عبد اﷻ الرازي عن الزمخشري أنهم قالوا ذلك مع أنهم كذبوا فيه ، ويدل
عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين : يوم يبعثهم اﷻ جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم
ويحسبون أنهم على شيء . قال أبو عبد اﷻ الرازي : واعلم أنّ المعتزلة لا يجوزون صدور
الكذب على أهل القيامة ، فكان هذا القول منه مخالفاً لأصول مشايخه ، لا يقبل منه . وقال
الزمخشري أيضاً : ويجوز أن يكون المعنى : لو كنا من أهل اللطف فلفظ بنا ربنا .

واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان . قال أبو عبد الله الرازي : وذكر القاضي هذا الوجه وزيفه بأنّ قال : لا يجوز حمل هذا على اللطف ، لأن ذلك قد فعله الله . وقيل : لو خلصنا الله من العذاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم . وقال الزمخشري في بسط هذا القول : لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي : لأغنيانا عنكم وسلكننا بكم طريق النجاة ، كما سلكننا بكم سبيل الهلكة انتهى . وقيل : ويدل على أنّ المراد بالهدى الهدى إلى طريق الجنة ، أنه هو الذي التمسوه وطلبوه ، فوجب أن يكون المراد . وقال ابن عباس : لو أرشدنا الله لأرشدناكم . والظاهر أنّ قوله : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا إلى آخره ، داخل تحت قول المستكبرين ، وجاء تجمله بلا واو عطف ، كأن كل جملة أنشئت مستقلة غير معطوفة ، وإن كانت مرتبطة بعضها ببعض من جهة المعنى لأنّ سؤالهم : هل أنتم مغنون عنا ؟ إنما كان لجزعهم مما هم فيه فقالوا ذلك : سواء بينهم وبينهم في ذلك لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها ، يقولون : ما هذا الجزع والتوبيخ ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر . ولما قالوا : لو هدانا الله ، أتبعوا ذلك بالإقناط من النجاة فقالوا : ما لنا من محيص : أي منجى ومهرب ، جزعنا أم صبرنا . وقيل : سواء علينا من كلام الضعفاء والذين استكبروا والتقدير : قالوا جميعاً سواء علينا يخبرون عن حالهم . وتقدم الكلام في مثل هذه التسوية في أول البقرة ، والظاهر أن هذه المحاورة بين الضعاء والرؤساء هي في موضع العرض وقت البروز بين يدي الله . وعن محمد بن كعب ،